«اللّهُ قتله وأنا معه»

الفتوى التي أشعلت الحرب

أبو مسلم الخَوْلاني: شيخُ قرّاء الشام والفئةُ الثالثة التي أُمِرت بالإصلاح

قراءةٌ في موقف سيِّد قرّاء الشام من الفتنة الكبرى وموقفه من قتلة عثمان

سورة الحجرات: ٩ · (فأصلِحوا بينهما)

الإشكالية

طائفتان اقتتلتا... فأين الفئةُ الثالثة؟

انقسم المسلمون في الفتنة الكبرى إلى طائفتَين من المؤمنين: طائفة عليّ بن أبي طالب، وطائفة معاوية بن أبي سفيان. وقد خاطب القرآنُ في مثل هذا الانقسام فئةً ثالثةً لا تنتمي إلى أيٍّ من المعسكرين، وكلّفها بمهمّةٍ محدّدة: الإصلاحَ بين الطائفتين، فقال: ﴿فأصلِحوا بينهما﴾.

الأطروحة

أنّ أبا مسلم الخَوْلاني، شيخَ قرّاء الشام، هو التجسيدُ الأبرز لهذه الفئة الثالثة المصلِحة؛ مثّل الضميرَ الديني للأمة لا طرفًا سياسيًّا، فسعى للإصلاح وإقامة الحجة بين عليٍّ ومعاوية.

مَن هو؟

أبو مسلم الخَوْلاني (ت ٦٢هـ / ٦٨٢م)

البطاقة التعريفية

- **الاسم:** عبد الله بن ثُوَب الخَوْلاني الدّاراني
- **الطبقة:** مخضرمٌ من كبار التابعين؛ أسلم زمن النبيّ ﷺ ولم يلقَه
- **الموطن:** وُلد باليمن، ثم سكن داريّا غربَ دمشق
- **الجهاد:** مجاهدٌ في أرض الروم، يتيمَّن به الولاةُ ويقدّمونه
- **الوفاة:** سنة ٦٢هـ في خلافة يزيد، ودُفن بداريّا

الألقاب والتوثيق

- **ألقابه:** سيِّدُ التابعين · حكيمُ هذه الأمّة · ريحانةُ الشام
- **أخذ عن:** عمرَ بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجرّاح، ومعاذِ بن جبل، وعبادةَ بن الصامت، وأبي ذرٍّ الغفاري.
- **توثيقه:** «ثقةٌ عابد» (ابن حجر) · «الزاهد، مناقبه كثيرة» (الذهبي) · «هذا حكيمُ هذه الأمّة» (مالك بن دينار).

لماذا هو الفئة الثالثة؟ (١)

شيخُ قرّاء الشام... لا رجلَ سلطان

أ

إمامةُ القُرّاء. قال البخاري عنه: «قارئُ أهل الشام». فهو المرجعُ الديني الأعلى لقرّاء الشام، يمثّل سلطةَ النصِّ القرآني لا سلطةَ الدولة.

ب

استقلالٌ عن السلطان. دخل على معاوية فقال: «السلامُ عليك أيها الأجير»، وضرب له مثَلَ الراعي المستأجَر الذي يُحاسَب على رعيّته إن أحسن أو أساء. ومن يحاسِب الخليفةَ علنًا ليس تابعًا لمعسكره.

هذا الاستقلالُ المزدوج — مرجعيةٌ دينية + حريةٌ في مواجهة الخليفة — هو ما يؤهّله ليكون الطرفَ المصلِح المحايد الذي خاطبه القرآن.

التأصيل القرآني

آيةُ الإصلاح: سورة الحجرات (٩)

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ الله، فإن فاءت فأَصلِحوا بينهما بالعدل وأقسِطوا، إنّ الله يحبّ المقسطين﴾

الطائفتان المقتتلتان

مؤمنون اقتتلوا — لم يُخرِجهم القتالُ عن وصف الإيمان.

الفئة المأمورة بالإصلاح

المؤمنون الآخرون — وإليهم الخطاب: «فأصلِحوا بينهما».

الفئة الباغية

مَن تأبى الرجوعَ إلى «أمر الله» فتُقاتَل حتى تفيء.

تنزيلُ الآية على الفتنة

الفئاتُ الثلاث في الفتنة الكبرى

١

الطائفة الأولى

عليٌّ ومن معه

الخلافةُ القائمة وجمهورُ أهل العراق.

٢

الطائفة الثانية

معاويةُ ومن معه

أهلُ الشام، يطلبون القصاصَ في دم عثمان.

٣

الفئة الثالثة المصلِحة

أبو مسلم وقرّاءُ الشام

ضميرُ الأمة الساعي للإصلاح وإقامة الحجة فوق المعسكرين.

الواقعة (١) — وساطةٌ قبل صفّين

بين المعسكَرين: أبو مسلم رسولًا للصلح

قبلِ وقعة صفّين، دخل أبو مسلم في جماعةٍ من قرّاء الشام على معاوية، فواجهوه بسؤال المرجعية الدينية: «أتنازعُ عليًّا في الخلافة، أم أنت مثله؟».

جوابُ معاوية

«لا، واللهِ إني لأعلمُ أنه أفضلُ مني وأحقُّ بالأمر؛ ولكن ألستُم تعلمون أنّ عثمان قُتل مظلومًا، وأنا ابنُ عمّه ووليُّه أطلبُ بدمه؟ فأتوا عليًّا فقولوا له: يدفع إلينا قتلةَ عثمان».

المصدر: أخرجها يحيى بن سليمان الجُعفي (شيخ البخاري) في «صفّين»، ونقلها ابن كثير في «البداية والنهاية».

حمل أبو مسلم رسالةَ الصلح إلى عليّ، وواجهه بالسؤال الحاسم: «مَن قتل عثمان؟».

«اللهُ قتله وأنا معه»

قراءةُ القُرّاء: إقرارٌ بأنّ القتلَ قَدَرٌ مبرَّر نُفِّذ بأيدٍ بشرية؛ فيُسقِط عصمةَ الدم، ويُسقِط معها وجوبَ القصاص.

وما إن بلغ القومَ طلبُ التسليم حتى لبسوا السلاحَ وملؤوا المسجد ينادون: «كُلُّنا قتلةُ عثمان».

من إسقاطِ العصمة إلى تبعةِ الدم

١

رفعُ القصاص بالجواب. حين كُيِّف الدمُ على أنه قَدَرٌ نافذ، سقط طلبُ تسليم القتلة على أساس العصمة.

٢

اندماجُ القتلة وإعلانُهم. صار القتلةُ قوةً داخل المعسكر، وأعلنوا جماعةً: «كلُّنا قتلةُ عثمان».

٣

خلاصةُ معاوية. «إذن نطلبُ دمَه ممّن قتله»؛ فالامتناعُ عن التسليم — بعد هذا الجواب — يُقرأ عنده شراكةً في الدم.

بهذا التسلسل تحوّل النزاعُ من خصومةٍ على الخلافة إلى خصومةٍ على القصاص، وهو ما تعجز عنه «الفئةُ المصلِحة» وحدها.

الأطروحة

أبو مسلم: الفئةُ الثالثة بالفعل لا بالشعار

سعى للإصلاح فِعلًا

تنقّلٍ بين المعسكرَين حاملًا كلمةَ الصلح وطلبَ القصاص العادل، لا منحازًا لطرف.

أقام الحجّة

استخرج من كلِّ طرفٍ موقفَه الصريح، فبان موضعُ النزاع وانقطعت معاذير الجهل به.

استنفد وُسعَ المصلِح

حين تعذّر الرجوعُ إلى «أمر الله» بالقصاص، انتقل الأمرُ من «فأصلِحوا» إلى ما بعده في تدرّج الآية.

جسّد نداءَ القرآن

ضميرٌ دينيٌّ فوق المعسكرَين هو عينُ ما خاطبت به الآيةُ الفئةَ المصلِحة.

موضوعية — القراءة المقابلة

كيف يقرأ الطرفُ الآخر الواقعة؟

١

تبرّؤُ عليٍّ من الدم. ثبت عنه: «واللهِ ما قتلتُ عثمان ولا أمرتُ ولا رضيت»، ودعا الله أن يبرأ إليه من دمه.

٢

تعذّرُ القصاص واقعيًّا. كان القتلةُ كثرةً مندمجين في الجيش وبأيديهم السلاح، فلم يُمكِن انتزاعُهم قبل استقرار البيعة.

٣

أولويةُ حقن الدماء. قدّم عليٌّ إخمادَ الفتنة على الاقتصاص الفوري؛ فموقفُه عند محبّيه سياسةٌ شرعية لا تهرُّب.

خلاصة: الواقعةُ محلُّ اجتهادٍ وخلافٍ بين المؤرخين، والأطروحةُ هنا قراءةٌ من زاوية شيخ قرّاء الشام.

لم يكن أبو مسلم الخَوْلاني طرفًا في الحرب، بل كان الصوتَ الذي أراد أن يَحقِنها.

هو الفئةُ الثالثة التي أمر الله أن «تُصلِح»؛ وحين أعيَتْه وسائلُ الصلح، بقِيت شهادتُه حجةً على التاريخ.

مصادرُ الدراسة

.**ابن كثير،** البداية والنهاية — قصة أبي مسلم الخولاني ووقعة صفّين

.**يحيى بن سليمان الجُعفي،** كتاب صِفّين (منقولًا عند ابن كثير)

.**الذهبي،** سير أعلام النبلاء — ترجمة أبي مسلم الخولاني

.**أبو نُعيم الأصفهاني،** حلية الأولياء — وعظُه لمعاوية وتسميتُه بالأجير

.**تفاسير الطبري والقرطبي وابن كثير،** سورة الحجرات: ٩

.**ابن حبان،** الثقات / مشاهير علماء الأمصار — ترجمة أبي مسلم الخولاني